ولكن - لربما

منذ الأمس القريب أخذتني الأفكار والهواجس ورزحت بي بعيدًا حيث هو، مع أنني لم أحظ برؤيته من قبل، ولم أكن أرغب كليًّا في هذا اللقاء، وكم وددت ألا أرحب به مطلقًا، ولكن.. ولكن شرارات الغضب التي كانت تتأجج من عينيه الحمراوتين وكادت تلهب وجنته باتت تطرح وتنبئني عن اتهام وشيك.

تساءلت في نفسي كيف تسلل حيث هذا الركن البعيد من مخيلتي، ورغم كل تلك الحصون!

اقترب منى رويدًا رويدًا وثبت عينيه في عيني وقال:

- ألست أنت الذي تجاهلت نفسك وانشغلت عنها؟
- لعمرى أنا من تسلل إليك عنوة عندما ضعفت حصونك ووهنت ثقتك فيمن حولك.
- بيد أنك أنت الذي فتح الباب لجنودي رغم رفضك الشديد.

- لعمري أنا الشك؛ حيث كثرة الظنون واختلاط الأمور وإرضاء الذات، وحيث الكبر والغرور ولا تلم إلا نفسك.
- نفسي ترفضك.
- كيف ترفضني؟ وأنا مهندسها وأعلم ما تختلج فيها من صراعات وظنون.
- ماذا تريد أن تصدر إليَّ؟ فأنا لا أصدقك ولكن.. لربما.
- ربما تكذب عليَّ ولكنها لا تخونني.
- لماذا تريد أن تشوه صورتها الجميلة؟ فأنا هكذا رآها قلبي.

أجابني بنبرات استعلاء بعدما رمقني بناظريه بكل غرور:

- ليس لي مكان وسط المشاعر.
- ارحل عني واتركني.
- كيف أرحل؟ وقد تملكت كل أفكارك واستوطنتك جنودي، ودكت كل حصونك، وكم كانت سعادتي حينما أبصرتها سبية تتهاوى واحدة تلو الأخرى مع وصول أول بذرة مني.

لحظتها.. لحظتها فقط رأيتها تتهاوى، تسقط كحبات العقد التي تتساقط على الأرض، لا أنت أمسكتها ولا حافظت على ما تبقى بيدك، وأخذت تترنح ما بين ما بيدك، وبين ما يسقط ويتهاوى وانفرط العقد.

أخذت نفسًا عميقًا وأحسست وكأنني أقف على أرض مهتزة، وفي باطنها بركان خامد قد ينشط ويثور.

أحسست أن كل ما حولي ساكن، لكنني أحس بأشياء وأشياء تتحرك في أعماقي تجرني إلى الظلام والسكون والموت.

في تلك اللحظات تعثرت بشيء في مخيلتي أراه من بعيد ينير ظلمة المكان الموحشة رأيته لحظات.. ولحظات رأيت فيه الخلاص ممن استوطن حصوني ويركض من خلفي.

كدت أن أختفيَ وأتعثر وسط الضوء الخافت حتى تحرك العقل في الظلام الساكن؛ ليعبِّرَ عما في نفسي، وتبادرت الأفكار في لحظة صمود، حاولت أن أتحداه أو أُوَاجِهَهُ، لكن سرعان ما قذفتني الأفكار بكل قوتها لتتقوقع أعماقي وتطرب نفسي وترتجف.

كدت أحس بأن روحه قريبة من روحي، وأدرك أن كل ما أفكر به يمر بذهنه من قبلي لأصاب بالخنوع، ويقتل البراءة في قلبي ويطفئ بريق عيني، وكأنني أساق إلى غياهب متاهة الداخل إليها مفقود، أنقم على كل من حولي حتى رأيت نفسي بكل قوتها، تعاود وتعاود الصمود ثانية يقينًا منها بأن جزاء هذا الصمود أن أتحرر من عبودية ذلك الشك اللعين.